تصميم للشعر الجزائري الحديث

بقلم أبو القاسم سعد الله

تمهيد

يخطيء من يظن أن مظاهر العروبة قد اختفت من الجزائر ، وأكثر من هذا خطأ اولئك الذين يحسبون ان لا شعر ولا شعراء على ضفاف المتوسط ومروج الاطلس وأن الارض الجزائرية التي تنافس اوروبا في جمالها وروعتها قد عقمت فلم تنجب اكثر من (المقري) و (ابن خميس) ولم تمنح العروبة سوى روافد من بجاية وتلمسان وقسنطينة ..

يخطيء هؤلاء واولئك في هذا الظن لان الجزائر العربية ما تزال بخير وما تزال وديانها وجبالها ودروبها تضيء بالعبقرية وتبعث المواهب وتنتج الشاعرية وتزف الى الادب العربي كل حين معطيات جديدة ..

وعندي أن الذي ساعد على هذا الخطأ ووسع من مجاله يعود اولا الى انقطاع الجزائر لظروف قاهرة عن شقيقاتها العربية ويعود ثانيا الى رضى المفكرين العرب بهذا الانقطاع حتى تصوروه امرا فوق التفكير وخارج الطاقة ، ومن ثمة حسبونا في دار غريبة بعيدة الاتصال وذكروا ما جاءهم من عندنا انتاجا اجنبيا لا عربيا وكلفوا انفسهم عناء البحث والتنقيب والسفر وراء ما ينتج الاخرون ولكنهم لم يفعلوا شيئا من ذلك ليعرفوا عن ادب الجزائر ما حجبته الظلمات وغطته ثلوج الشتاء القاسي ..

وأحسب ان هذا لا يعفي الجزائريين من التبعة ويخفف عليهم ثقل الامانة التي يتحملونها امام فكرهم وادبهم وتاريخهم ، فقد خلدوا الى نوع من السكينة وصمتوا صمتا جعل الاخرين يعدونهم في قافلة الاموات بينما كان الواجب يقضي بالصمود في سبيل رسالة الادب حتى النهاية وباذاعتها في آفاق الدنيا حتى تتجاوب مع الافكار الاخرى ..

ولعل الذي ساعد على بقاء الجزائر قرنا وربع قرن تحت رحمة هذا الاستعمار هو هذا الفراغ الذي كانت تعانيه ... الفراغ الذاتي الذي جعل كل شيء صامتا لا ينبس ، هادئا لا يتحرك ، راضيا لا يتمرد ..

وانا اذ اصرح بهذا الرأي الشخصي استند ايضا الى الواقع فانك ستعرف بعد قليل ان الادب والشعر بالاخص لم يكن منذ ظهوره محدود الهدف ، عميق الصوت،قائد الخطوات ، وانما ظهر الى جانب النشاط الوطني الاخر وسار معه دون أن يتقدمه خطوة واحدة او يتمرد على مفاهيم معينة من داخل نفسه ..

ولست أزعم أن الادب الجزائري قد بلغ درجة يحسد عليها او شارف الكمال ولكني أردت أن اقول أن للجزائر في الادب العربي لقدما وان لها لانتاجا ومهما كان رسوخ هذا القدم وجودة هذا الانتاج فان الادب لا يعدو ان يكون تعبيرا عن الحياة التي عاشتها الجزائر وراء القضبان عشرات السنين . وأنه لا يعدو أن يكون صورة للصراع من اجل البقاء ... بقاء العربية في الجزء المتوسط من المغرب العربي . ولا بأس من ان أضغط على كلمتي (تعبير) و (صورة) لكيلا أتهم بأني اعتبر الادب الجزائري نزوعا الى هدف او بشيرا الى مجهول ..

ويكفي الشعر الجزائري انه احتفظ لنفسه بميزات واضحة وانه كان صادقا في الوقت الذي كان شعر الاخرين لونا من السوداوية القاتمة وانه كان صدى لخلجات الشعب وأناته في الوقت الذي كان الشعر الاخر طائرا في آفاق الورد والشفاه والاحلام بينما حياة شعوبه مأساة قاتلة .. حسب هذا الشعر انه كان صوتا لكفاح الشعب الجزائري منذ استهل وما يزال معه جنبا الى جنب لا يفتر ولا يتلفت الى الوراء ولا تذهله الصفعات التي يتلقاها من وقت الى آخر من يد غير رحيمة ..

العهد الاسود

نعتبر منتصف القرن التاسع عشر أو بعد ذلك بقليل نقطة البدء للشعر الجزائري الحديث للاسباب التالية :

اولا ـ ان الثلاثة القرون التي قضتها الجزائر تابعة للحكم العثماني كانت بمثابة العصور الوسطى عند اوروبا او عهود الظلام في الشرق .

ثانيا ـ ان الغزو الفرنسي بالرغم مما أشاع من الارهاب قد كان مبعث يقظة تمثلت مرة في المقاومة المسلحة واخرى في النشاط الفكري .

ثالثا ـ ان الافيون الديني الذي كانت تحكم به تركيا الجزائر قد حل محله العنف الدموي الذي حكمت به فرنسا . فكان هذا التحول في الحكم مصدرا للوخزات التي بعثت اليقظة والانتباه وعدم الاستسلام والركون .

رابعا ـ بحثنا عن شاعر بذاته يمثل تطورا في المنهج او في المفهوم الشعري لنتخذ منه بداية ، ولكننا لم نجد هذا الشاعر المعين بل وجدنا جيلا كاملا من الشعراء ظهرفي فترة واحدة او متقاربة وأسهم بنصيب واحد في الموضوعات والشعارات والاساليب . ولذلك نعد ظهور هذا الجيل في النصف الثاني من القرن التاسع عشر نقطة البداية في الشعر الجزائري الحديث .

خامسا ـ ان الروح الانقلابية في الشعر وارتباطه بالقضية الوطنية سلبا وايجابا جعلاني اعزو ذلك الى سبب رئيسي في هذا الانقلاب ، وهو الاحتلال الجديد ، ومن هنا امكننا ان نعد شعر الامير عبد القادر آخر صفحة من الشعر القديم ..

والحق ان يد البغي الجاثم على صدر الجزائر لم تمكنا من الاطلاع على انتاج القرن التاسع عشر ولم نستطع ان نعرف عن كثب مقدار تقدم هذا الشعر او جموده والموضوعات التي تناولها والاهداف التي بشر بها .. غير أننا ـ بعد دراسة وجهد ـ توصلنا الى بعض النماذج تنتسب الى الربع الاخير من القرن الماضي اشترك فيها غير واحد من شعراء تلك الفترة السوداء من حياتنا الادبية . وهذه النماذج تنبئنا بأن موضوعات هذا الشعر كانت لا تعدو الحماس والفخر والرثاء والوصف احيانا كما كان شائعا فيها المدح والغناء .

ويحمل الينا شيوخ ذلك العهد ـ اوائل القرن الحالي ـ بقايا البضاعة التي كانت سائدة عندهم والتي يكاد الكساد يأتي عليها لولا الامتداد الطبيعي والعاطفة الاصيلة نحو العروبة التي تتمثل في المحافظة على

رمز القرآن الكريم .. ولولا الاحساس بالضغط الذي ينفجر احيانا في كلمات تدعو الى التغيير وتبعث الحيرة وتشيع الهواجس .

ومن هنا وجدنا في هذه الاشعار مدائح نبوية على نسق البردة والهمزية ووجدنا روحا متدينة غير طموحة الى حياة افضل في الدنيا وانما تتواصى بالعمل النافع لها في يوم تنتظره ويخيل اليها أنهـا واصلة اليه بين عشية وضحاها .

والسر في هذه الروح اليائسة او العازفة عـن ملذات الدنيا وكرامة الحياة هو ما وصلت اليه حالة الجزائر انذاك من التجريد الذاتي ومحاولة قتل الروح القومية على يد الغزاة الفرنسيين .ومعنى ذلك أن الشعـر مهما كان ضعيفا مظلما في نظرنا الان كان يمثل هذه الفترة اصدق تمثيل .

العنف واليأس

عندما دخل القرن العشرين كانت روح اليأس قد بلغت درجة خطيرة نتيجة للصدمات والهزائم التي منيت بها الجزائر كلما حاولت الافلات من قبضة عدوها ، ذلك أن هذه الارض لم تعرف الهدوء او تذق طعمـا للراحة مذ وطئها الغزاة ، ولذلك تعددت الثورات وشاع التمـرد والمقاومة . غير أن ذلك كله كان يقابل من الجانب الاخر بقسـوة ووحشية . ونتيجة لعدم التكافؤ المادي حلت الهزيمة اثر الهزيمـة بالجزائر وتجرعت كؤوس المرارة دهاقا .

ويبدو ان الجزائريين في الفترة ما بين اواخر القرن التاسع عشـر وأوائل القرن العشرين بدأوا يتنبهون الى أن هذه الطريقة الفجة في مقاومة العدو غير مجدية بل لعلها تؤدي بالشعب الى الفناء .

ولا بد أن هذا الشعور قد خامر كثيرا من قواد الشعب فهدأت حدة الثورات الى حدكبير ولم تعد ـ اذا كانت ـ سوى ثورات محلية لسبب قد يبعدها عن الاهداف الوطنية الشاملة . .

ولذلك بدأ الناس يفكرون في طريقة اخرى للكفاح .. طريقة تتلاءم والعصر الحديث ، فاذا كان الموقف يقتضي سياسة وحكمة واجهوه بهما. واذا كان يقتضي ثورة وعنفا كان لهم من العدة والاستعداد ما يحقق آمالهم .

وهكذا تطور الشعور السياسي في المقاومة الجزائرية .. تطور لا ليتخلف او يرهب او ينحرف بل ليتقدم خطوات بالمفهوم الكفاحي . ولم يمض على هذا الشعور النامي وقت طويل حتى دقت الحرب الاولى طبولها . وقد حاربت الجزائر جنبا الى جنب مع فرنسا ـ مجبرة ـ وأسفرت هذه الحرب عن تجارب ثمينة انضافت الى خبرة الجزائريين كما اسفرت عن اول حركة وطنية بقيادة الامير خالد . وبدأ الصراع السياسي يمر بتجربة فيها اخذ ورد وفيها ارتفاع وانخفاض في درجة المقاومة الى ان حلت سنة ١٩٢٥ .

انبثاق الشعر

كان غرضنا من هذه الجولة القصيرة ان نلقي بعض الاضواء على اول انبثاقة للشعر الجزائري بالمفهوم الحديث ولنرسم خطا لسير الحركـة الشعرية نتبين منه مدى ارتباطهما بالحركات الاخرى سياسية كانت او غير سياسية .

والحق ان الشعر الجزائري لم تغره السياسة مهما بالغت في الجاذبية فلم يسر في ركاب اي حزب ولم يكن بوقا في انتخابات او جرسا في كرسي معين واذا كان يؤخذ عليه شـيء فهـو انـه كـان احيـانا ـ كالشعر الطوقي ـ بجانب التيار الوطني المندفع ويكتفي بالدوران حول نفسه او في حلقة مفرغة فيها كثير من التعفن والذباب ، ولـذلك لـن نعير هذا الشعر اي اهتمام وحسبنا أنه لم يجد أي صوت ولم يحدث أي اتجاه وبالتالي مات في مهده الى الابد ..

ولست ادري هل كان من الخير للشعر ان ينظم لحزب سياسي او يبقى حرا يعالج مشاكل الوطن بنفسه ... ولكني على رغم ذلك احبذ ان يختار الشعر اتجاها معينا يجاهد من اجله حتى الانتصار ... وهذا ما فعله الشعر الجزائري ...

حقيقة انه لم ينظم للاحزاب السياسية ولكنه مع ذلك لم يبق على الهامش يقدح في هذا ويطري بذلك بل اختار منظمة وطنية اخرى غير سياسية بالرغم من أنها تحمل شعارات ـ الاخاء ـ العدالة ـالمساواة ـ الحرية ... نقصد بها حركة الاصلاح التي اصبحت تسمى فيما بعد « جبهة العلماء والتي أسسها الامام عبد الحميد بن باديس في العقـد الثاني من هذا القرن .. وقد تسترت هذه الحركة اول مرة تحت تعاليم الاسلام واللغة العربية ومحاربة الخرافة وحفظ شخصية الجزائر ولكنها ما لبثت ـ بعد أن تركزت وأصبح لها جمهور قوي ـ ان اعلنت أن كل المبادىء السابقة تستلزم انفصال الجزائر عن فرنسا . .

وليس معنى ارتباط الشعر بالحركة الاصلاحية انه انعزل تماما عن بقية الاتجاهات ولكن الذي حدث بالذات هو أنه كان ينظر الى القضايا الوطنية جميعها من زاوية واحدة هي زاوية الاصلاح الثقافـي والاجتماعي .

ولدراسة الشعر الجزائري دراسة تتمشى مع ما بحثناه سابقا وضعنا له هذا التصميم وذلك بتقسيمه حسب الفترات التي يكثر فيهـا الاصطراع الشعبي وتتدافع اثناءها الامواج الوطنية في اشكال مختلفة .

أولا ـ شعر المنابر من اواخر القرن التاسع عشر حتى مطلع سنة ١٩٢٥ .

ثانيا ـ شعر الاجراس من ١٩٢٥ ـ ١٩٣٦ .

ثالثا ـ شعر البناء من ١٩٣٦ ـ ١٩٤٥ .

رابعا ـ شعر الهدف من ١٩٤٥ ـ ١٩٥٤ .

خامسا ـ شعر الثورة من ١٩٥٤ ـ

ويجب ان يلاحظ الدارس اننا لانتناول الشعر على هذا النحو باعتبار أن كل فترة تمثل حدا فاصلا بل اننا لا نقصد سوى تتبع الحوادث وتأثيرها في الشعر ، ومن الممكن في احيان كثيرة أن يصعب التمايز فـي الطابع العام ..

وهناك بعض العناوين الاخرى نحب ان نتعرض لها في شيء من الايجاز وهي :

اولا ـ موضوعات الشعر

ثانيا ـ حركة التجديد

ثالثا ـ خصائصه

رابعا ـ ثقافته

خامسا ـ الشعر بالفرنسية

شعر المنابر

في هذا الشعر كثير من رواسب الماضي ومخلفاته ، ونحن اذ نطلق عليه هذا الاسم نقصد المعنى اللفظي لهذه العبارة ، فهو شعر منبري لحما ودما ، لان اساسه الوعظ والارشاد واصباغه دينية يكثر فيها لفظ الاسلام والاصلاح والسلف وما شاكلها ، ولان اهدافه اصلاحية ترمي الى انماء الوعي الشعبي عن طريق الدين والمباديء الخلقية ، وقد عرفت ان انتسابه كان الى الفكرة الاصلاحية التي لم تكن تبدو في شكل منظم يسمح لها بالظهور كمبدأ ولذلك كان على شعر هذه الفترة أن يهضم اغراضها ويصوغها في أثواب مختلفة تستميل الشعب وتبعث فيه حاسة اليقظة كما تفعل الكلمات الدينية البحتة ..

ولكي ندرك مهمة الشعر علينا أن نتصور المدى الذي كانت عليه الجزائر آنذاك من الشعور بالخيبة والاستسلام للخرافات والاوهام والعقد النفسية المتراكمة نتيجة لغزوين ، الاول كان داخليا يشنه المشعوذون والرجعيون . والثاني كان خارجيا يقوم به اصحاب الاهواء والمطامع من حثالة الاستعماريين ..

ان هذا الشعر قد عانى الكثير في سبيل بلورة الاصلاح ، وقاسى اصحابه العذاب والتنكيل في سبيل تعريب الجزائر وابقاء كيانها دون اندماج او ذوبان .

وقد كانت وسيلته الى الاتصال بالشعب هي الصحافة العربية التي انشأتها حركة الاصلاح وغيرها مثل « الاقدام » « الفاروق » « المنتقد » .. او عن طريق الاجتماعات العامة في مناسبات شتى كتدشين المدارس الحرة واحياء المواسم القومية والحفلات الخيرية والمدرسية .

وهناك وسيلة اخرى لها اهميتها وهي ان اكثر الشعراء في هذه الفترة كانوا معلمين في المدارس التي اسسها الشعب بعد الحملة الضخمة التي نادت بالنهضة والتعلم والبناء . فكان هؤلاء الشعراء ، يغتنمون فرصة وجودهم بين تلاميذهم ليبثوا فيهم روح الحماس الوطني بالشعر الذي ينظمونه خصيصا لهذه الاغراض .

ومن شعراء هذه الفترة : عاشور الخنقي ، عبد الرحمن الديسي ، ابو اليقظان ، الطيب العقبي ، محمد اللقاني ، السعيد الزاهري ، الهادي السنوسي ، احمد الغزالي ، الجنيد احمد مكي .

وأحب أن أنبه الى أنه لا يجب ان يفهم القارىء من كلامي السابق أن جميع من نظم الشعر على هذا العهد كان غرضه اصلاحيا فقط .. وانما كنت اعني أن الصفة الغالبة والطابع المميز لهذا الشعر هو الاصلاح في ثوبه الوقاري المتواضع ..

ولا بأس من نموذج من هذا الشعر يصور الحقيقة التي وصفناه بها وسنذكره من غير قصد من بين عشرات النماذج التي بين أيدينا ..

يقول الشاعر محمد اللقاني احد شيوخ الشعر الجزائري الكلاسي من قصيدة نشرها بجريدة «الاقدام » :

بنى الجزائر هذا الموت يكفينا ... لقد اغلت جبل الجهل أيدينا
بنى الجزائر هذا اللهو اوقعنا ... في سوء مهلكة عمت نوادينا
بنى الجزائر هذا الفقر أفقدنا ... كل اللذائذ حينا يقتفي حينا
بنى الجزائر استيقظوا فلكم ... اذاقنا اللهو والاهمال تهوينا
بنى الجزائر ما هذا التقاطع من ... دون البرايا ... عيون جمعت فينا
فقر وجهل وآلام ومسغبة ... يا رب رحماك هذا القدر يكفينا
حياتنا قط لا يرضى بها احد ... وعيشنا صار زقوما وغسلينا
يا دهر رفقا بأغنام مقطعة ... عشى بمربضنا سيد ليبلينا

اما النموذج الذي نذكره دليلا على ان هذا الشعر لم يكن ملتزما هذا المنهج الاصلاحي في كل حين فهو للشاعر ـ الجنيد احمد مكي الذي اخذته فرنسا ليدير مدرسة في السودان الفرنسي فلما اراد الاتصال بالسودانيين خافوه لانه ابيض البشرة ويضع على رأسه قبعة ضد الشمس وحين ضاق بالوحدة اتخذ غزالا اسمه «سهيل » ليستانس به.. يقول الشاعر من قصيدة طويلة مليئة بالتأمل عنوانها « شاعر في غربته » ..

ان ملت للعرب قالوا ... اللعربي وصال
او ملت للسود قالوا ... ذا ابيض مختال
أو ملت للروم قالوا ... صفاء هذا خيال
يا ليت شعري لماذا ... هذا القلى والقال
والاصل اصل فريد ... والمرء للمرء آل
لما رأيت نفورا ... والخب داء عضال
خطبت للوحش ودا ... فجاء منه غزال

شعر الاجراس

استبدل الشعر في هذه الفترة (١٩٢٥ ـ ٣٦) نغمة جديدة لم تخرجه عن النقطة التي بدأ منها ولكنها كانت نغمة تمتاز بالقرع والاهتزازات المباشرة ومن هنا وجدنا اكثر الاسماء انطباقا على هذه النغمة أن نسميها نغمة الاجراس او شعر الاجراس ..

والسبب في هذا التطور من المنبر الى الجرس ان الجزائر شهدت ميلاد حزب الشعب الذي كان يسمى نجم شمال افريقيا وجمعية العلماء التي كانت حركة اصلاحية غير رسمية . كما شهدت الجزائر مولد بعض الاحزاب الاخرى كالحزبين الشيوعي والاشتراكي وظهرت من وسائل التعبير بالعربية مجلة قوية باسم « الشهاب » وجريدة وطنية رزينة باسم « البصائر » الى جانب بعض الصحف الاخرى « كالسنة» و «الشريعة ».

وقد امتلأ الجو الجزائري بالغبار وانعقدت في سماء الوطن كثير من السحب التي منها ما ينقشع سريعا ، ومنها ما يدوم طويلا ، ومنها ما ينعش النفس ويبشر بخير عميم ، ومنها ما يحزن ويبعث الكآبة وخيبة الامل ..

وعلى كل فان هذه الزوابع والسحب قد زادت الشعب ايمانا بنفسه وبمستقبله وجعلته يستيقظ في غير تهور ويفتح عينيه على صباح جديد .

يقول الفيلسوف الجزائري مالك بن نبي احد المعاصرين لهذه الفترة في كتابه (شروط النهضة ومشكلات الحضارة) « وخلال العصر الذهبي الذي بدأ عام ١٩٢٥ واستمر حتى زوال المؤتمر (١٩٣٦) الذي مات في مهده كنا نشعر بالنهضة ، ولم يكن زادنا في مبدأ رحلتنا سوى كلمات من الفصحى ، وبعض آيات من القرآن وهكذا ابتدأت على اثر هذه النهضة المدارس الاولى تشيد بسيطة متواضعة كتلك المدارس التي افتتحت في الغرب بعهد شارلمان والتي كانت اصولا للمدنية الغربية » .

ويقول عن الادب في هذه الفترة « ولم يتخلف الادب الجزائري عن الركاب فقد بدأ يصور تقدم البلاد في قصائد جدد فيها نشاطه بعد ركود طويل .. كانت تلك القصائد تغني ربيع النهضة .

لقد اكتسبت الشعر في هذا الجو طاقة جديدة وذخيرة تعبيرية لم يجدها منذ قرن او اكثر ولذلك راح يدق الاجراس ويطلق الصفارات متمشيا مع التيار الوطني المتدفق من نفسية الشعب وهو اذ يفعل ذلك لا يزج

ـ التتمة على الصفحة ٦٥ ـ

تصميم للشعر الجزائري الحديث

ـ تتمة المنشور على الصفحة ٢٩ ـ

بنفسه في مفهوم خاص او يتناول قضية ما بالتجزئة ولكنه يظل صورة للقلق والغيوم التي تتلبد في سماء الجزائر ..

والحقيقة ان شعر هذه الآونة كان سلبيا الى حد كبير ولم يتعن باية نهضة كما يرى الاستاذ بن نبي ، لانه لم يجد اهدافا وركائز واضحة لتلك النهضة ، وانما وجد شعبا قلقا قد فتح عينيه على اشياء كثيرة لم يدرك بعد حقائقها فكان الشعر صورة لهذه الحيرة . ولو كان لهذه النهضة وجود حقيقي لما تداعت بفشل المؤتمر ولما زادتها الايام اضطرابا لان الوعي الوطني قد بقي سليما صاعدا بالرغم من الفشل الذي حل ببعض التجارب الشعبية .

انظر مثلا هذه اللهجة الحائرة بين الواقع الشعبي وبين الامل الذي يضطرب في نفس الشاعر نحو آفاق مجهولة ... يقول محمد العيد ابرز شعراء الجزائر يخاطب الشعب :

أيها الشعب فيم توسع قهرا ليت شعري لاي امر تقاد
ليت شعري متى تصير عتيدا ولاهليك بالنفوس اعتداد
ليت شعري متى تمد لك الايـ ـدي وتغري بحبك الاكباد
ان خير البلاد في وسع اهليها اذا ابداوا بها واعادوا

ولعلك تلاحظ في غير عناء مقدار الحيرة التي تتمثل في تكرار التساؤل بـ (فيم ؟ وليت شعري) . وقد انشىء هذا النموذج سنة ١٩٣٥ اي قبل انعقاد المؤتمر بنحو سنة .

ويقول محمد العيد من قصيدة اخرى تقترن فيها الحيرة باليأس القاتم :

نح على امة حظها تاعس
امة مجدها دارج دارس
امة لها قائد سائس
قد نبا سيفها وكبا الفارس
خصمها دائب فوقها دائس
وبنوها أخ للأخ باخس

فاين التغني بربيع النهضة في هذا الشعر وامثاله . اللهم الا حيرة وقلق واجراس يدقها الشعر في مثل هذه اللهجة :

يا شعب جد الجد فانهض واكسب المفاخرا
يا شعب رض بالصالحات ارضك الجزائرا
قد انجبت وتنجب الاحرار والحرائرا

ومهما يكن من شيء فان الشعر قد تجاوب مع الشعب في هذه المرحلة الخطيرة من تاريخ الوعي وصور حياته كما هي دون تزويق او اطراء . ومن شعراء هذه الفترة : محمد العيد ، الامين العمودي ، جلول البدوي ، احمد سحنون ، مفدي زكريا ..

شعر البناء

آلت امارة الشعر كما يقولون الى محمد العيد فاخذها بجدارة ولم تسكت الاصوات الاخرى ، وانما طال بها الطريق ونفد عندها الزاد ، فاستحبت الراحة على العناء ، وخلدت الى نوع من الركود يشبه الفناء. فانزوى البعض يبحث عن ذاته وتساط آخرون عن مجهوداتهم التي يرونها تذهب هباء . ويئس آخرون من الشعر طريقا الى التعبير الواضح ، فعادوا الى النثر يقتدحون زناده ، وينحتون من صخره ولم يبق من الاصوات الاخرى غير صوت احمد سحنون ومفدي زكريا وبعض اصوات لا يكاد يسمع لها صدى ..

ومحمد العيد اذ تسلم هذه الامارة لم يتخذها طريقا الى الشهرة والتهريج ولم يحد بها عن الطريق الذي عبده اسلافه ووضعوا فيه بعض المصابيح بل شق نفس الطريق وخاض عين الوحل ولكنه استطاع وبقدرة عجيبة ان يضيف مصابيح اخرى باهرة الضياء ويعبد كثيرا من المسافات التي كانت من قبل مظلمة .

وقد ساعده على ذلك تطور المفاهيم القومية بحيث انتفع بتجارب الماضي ووعي الحاضر واحلام المستقبل كما ساعده ظهور المدارس الادبية التي دخلت الشعر العربي عن طريق ادباء المهجر وبعض الادباء الشرقيين والتي جاءت الجزائر ايضا عن طريق ادباء فرنسا وصحافتها.

على ان هناك شيئا يجب ان نعرفه وهو أن محمد العيد لم يخلق في هذه الآونة فقط بل كان موجودا وشاعرا قبل سنة ١٩٢٥ (ولد في ١٩٠٤) ولكني رايت ـ بعد قراءة شعره ـ انه في المرحلة الاولى كان عابر طريق وفي المرحلة الثانية كان نافخ مزمار دون موسيقى . اما في المرحلة هذه فقد بلغ درجة من النضج والمقدرة على تمثل احساسات الشعب وهضم الاهداف الوطنية ما جعله بحق شاعر الشعب في ادق ظروفه ..

ان الجزائر قد عرفت في هذه المرحلة اكبر الهزات الوطنية والعالمية وكانت مسرحا لانفعالات نفسية متعددة ، فقد انعقد فيها لاول مرة في تاريخها مؤتمر يضم آلاف المواطنين واشتركت فيه اكثر الهيئات الوطنية وتحدث فيه الخطباء عن تاريخ الجزائر وحاضرها وتحدثوا عن آلام الشعب وآماله ودعوا الى مستقبل افضل يرفع عن الشعب كابوسا طالما حجب عنه الحقائق ونادوا (بالكيان الجزائري) المتميز باللغة والدين والوطن ثم تلوا على مسامع الجماهير المطالب التي اقرتها اللجنة المختصة فهتفت لها الجماهير وايدتها . واثناء هذا المؤتمر تكلم الشعراء فهيجوا الحماس وحركوا الكوامن وتغنوا بالوحدة والنضال في سبيل الوطن .

وبالرغم من فشل هذا المؤتمر في مطالبه بعد ذلك فانه كان نقطة انطلاق خطيرة في تاريخ الكفاح الجزائري .. ذلك انه قد فتح اعين الشعب على آفاق رحبة لم تكن معروفة من قبل نتيجة لما اثاره من قضايا وما صقله من نفسيات وما وجهه من جهود .

وزيادة على هذا البناء النفسي الذي شيده المؤتمر ، فانه ترك اثرا آخر له خطره وهو حفر هوة عميقة بين الحكومة الدخيلة والشعب ... ففي الوقت الذي كان فيه دعاة الاندماج واللوبان يعملون على تنفيذ خططهم بالحيلة والدس والاغراء ، كان المؤتمرون يحدثون الشعب عن (الذات الجزائرية) والتمايز بينها وبين الذات الفرنسية .

وبذلك يكون المؤتمر قد قطع شوطا في سبيل التباعد واحياء الحواجز التي تحول دون ذوبان الشعب الجزائري في الشعب الفرنسي والتي عمل المستعمرون على دفنها واخفائها حتى يتاح لهم (صب) الجزائر في نهر السين .

ولم تكن الهزات الوطنية ممثلة في المؤتمر فحسب بل كانت هناك غضبات شعبية اخرى في وهران وقسنطينة .

ولم تكن هذه الهزات هي حصيلة الجزائر من التجارب في هذه الفترة بل عرفت هزات اخرى اشد عنفا واعظم هولا واغنى تجربة هي الحرب الكونية الثانية التي خلفت وراءها الدمار والحزن الابدي كما خلفت انبثاقات شعبية وتطلعات نحو الغد .

وعرفت الجزائر كذلك تقاتل الافكار بعد فشل المؤتمر فقد كثر الهمس داخل الاحزاب حول المستقبل واشتد الصراع بين الهيئات حول الطرق التي ينبغي اتباعها للوصول الى الانفصال والاستقلال . ولا فرق في هذا التقاتل بين الافكار السياسية ذاتها وبين الافكار الاصلاحية المتواضعة فان جميع ذلك قد ساعد الشعب على ان يصبح حكما وان يتدخل فيما يعمل باسمه وبالتالي اصبح الشعب قادرا على (الاختيار)والتوجيه .

وفي هذه المرحلة من تاريخ الجزائر اخذ الشعر على عاتقه الدعوة الى الوحدة والى الوطنية النقية والى التحرر من الماضي البغيض ونسيان الذات في سبيل المثل الوطنية كما اخذ يواجه العدو بشيء من الصراحة والتهديد ويبعث ما في الجزائر من طاقات مذخورة وما فيها من خصائص تميزها وتجعل منها شخصية نموذجية مستقلة .

ولهذه الروح الجديدة في الشعر اسميناه (شعر البناء) لانه سعى جهده في سبيل الاشادة بالكيان الجزائري وتشييده على اسس وطنية راسخة .

يقول محمد العيد وهو يعرض بالخونة والرجعيين :

قف حيث شعبك مهما كان موقفه اولا فانك عضو منه منحسم
تقول اضحى شتيت الراي منقسما وانت عنه شتيت الراي منقسم
اعدى عدى القوم من يعزى لهم نسبا ويسمع القدح فيهم وهو يبتسم

ويقول عن الذاتية العفنة التي ابتلى بها بعض الزعماء :

لا ارى الالقاب الا بروقا واجفات الطرف وهو كليل

ولعل النموذج التالي خير دليل على ما وصل اليه الشعور الوطني في هذا الشعر الباني ، فقد تحدث فيه الشاعر عن الحياة الصاخبة وامر الناس بخوضها عراكا ومقالية وتغنى بالجزائر كوطن مقدس ورضي بالبقاء فيه مهما كان جحيما ، بل سمى هذا الجحيم ربيعا رطبا ما دام في حمى الوطن ، كما تحدث عن الوحدة فلا عربي وبربري ولا جنوبي وشمالي وانما هناك شعب واحد ووطن واحد وعدو واحد وامل واحد .

يقول محمد العيد من قصيدة طويلة :

هلم نعاركك فالحياة معاركك هلم نقاحم فالحياة مقاحم
وهبتك روحي يا جزائر فامري كما شئت اني خاضع لك خادم
حماك ربيع لي وان كان جاحما علي وهل يصلي خليلك جاحم
وقرباك هم قرباي لست مباليا اعاريب هم في جنسهم ام اعاجم
فخذ من دمي يا ابن الجزائر انني اخ لك في كل الحظوظ مقاسم

شعر الهدف

بعد مجزرة ٨ ماي ١٩٤٥ التي ذهب ضحيتها اكثر من اربعين الف جزائري ابان احتفال الحلفاء بالانتصار ـ اكتسب الشعب الجزائري تجربة جديدة اهتدته ـ كما اهدت الشعب ـ الى ان لا امل من عدوه بغير سلاح . وهذه التجربة وان خلفت جراحا والاما كثيرة الا انها اياست الشعب من المحاولة السلبية وجعلته يكتشف نفسه التي كانت تائهة في ضباب السنين .

وانا اقول تائهة لانها في الواقع كانت كذلك فان النفس الجزائرية لم تهتد سابقا الى هدفها المنشود من خلال جميع الفترات التي تعاقبت عليها ، ومعنى ذلك ان اعمالها السابقة لم تكن سوى ارهاصات لهذا العهد اما في هذه الفترة ـ بعد ماي ـ فقد زالت عنها كل الغشاوات والكثافات التي كانت تمنعها من معرفة المجهول ووجدت الجزائر نفسها امام الحلقة المفقودة من تاريخها . هذه الحلقة التي لم يبق عليها سوى ان توصل باخواتها كي ينتهي الكفاح الى القمة ..

ونتيجة لهذه المأساة ظهرت في افق الجزائر هذه المرة الحان الحرية والضحايا والاستقلال والعلم الرفاف .. الى آخر هذه الرموز المقدسة في قلب الشعب والتي لم تكن لتظهر لولا التطور الكفاحي الذي يدنو من الهدف

وقد ظهر من الشعراء كل من الربيع بوشامه وعبد الكريم العقون واحمد الغوالي وموسى الاحمدي وحسن حموتن والاخضر السائحي . ورغم ذلك فان القيادة ما زالت في يد محمد العيد وما زال الى يمينه وشماله كل من سحنون وزكريا ..

وقد تنوعت موضوعات الشعر الجزائري في هذه الفترة وطرق عدة ابواب اهمها قضية فلسطين واحداث الشرق الاوسط كاستقلال الشعوب العربية وصراعها مع الاستعمار وبعض القضايا الاجتماعية المعاصرة ..

ومع هذا التطور المحسوس في الموضوعات فان الشعر لم ينس قط رسالته التعليمية والاصلاحية سيما عند محمد العيد وسحنون والاحمدي ..

ففي سنة ١٩٥١ نشر الشاعر المشهور محمد العيد قصيدة طويلة عنوانها (الى العلم) يقول في مطلعها :

أراك بلا جدوى تضج من الظلم الى العلم أن رمت النجاة الى العلم

وكانه يعود بفكره الى ما قبل سنة ١٩٢٥ حيث يقول الشاعر اللقاني:

بني وطني هل من نزوع لاجداد فقد ركبوا للعلم صهوة منطاد

او حيث يقول الشاعر السعيد الزاهري ـ

توفر حظ الناس في العلم والهدى وما زال منقوصا نصيب الجزائر

ويجب ان نلاحظ دائما مهما تازمت الظروف وهبت الزوابع ان الشعر يبقى محافظا على توازنه متمسكا بوقاره ونظرته الواقعية الهادئة . وعندي ان السبب في ذلك هو انه لم يكن حزبيا او سياسيا ولو كان كذلك لاكثر من الضجيج والهرج ولخاض غمرات تدفعه حينا الى القمة وتدحرجه احيانا الى الحضيض حيث يلقى مصرعه ..

ولعلنا الان نستطيع ان نذكر بعض النماذج التي تلقى الضوء على ما قصدنا اليه من (شعر الهدف) . يقول الشاعر احمد سحنون يخاطب المعلم :

هات من نسل الحمى خير عتاد وادخرهم لغد جند جهاد
هات نشئا صالحا يبني العلا ويفك الضاد من اسر الاعادي
ان في يمناك شعبا كاملا يتنزى بين ظلم واضطهاد
لم يزل في القيد منهوك القوى مذ القى للاعادي بالقياد

ويقول وهو يخاطب التلميذ في قصيدة اخرى ـ

شعبك الموثوق لم يبق له من عتاد فلتكن خير عتاد
لج الاستعمار في طغيانه كل يوم منه الوان اضطهاد
فليكن حاديك تحرير الحمى ان تحرير الحمى للحر حاد

ولعلك تلاحظ ان بعض الكلمات والتعابير لها وقع خاص في هذه الابيات مثل ـ تحرير الحي ـ جند جهاد ـ اسر الاعادي ـ يتنزى بين ظلم واضطهاد ـ لج الاستعمار في طغيانه .. الخ ويقول الشاعر عبد الكريم العقون في لهجة اكثر وضوحا وابسط لفظا ـ

بني وطني اعيدوا مجد قوم اقاموه على اقوى عماد
وقدوا ما عليكم من حقوق لشعبكم وذودوا كل عاد
وفكوا قيده لا تتركوه يعاني كل ظلم واضطهاد

والفرق بين هذا النموذج والذي قبله انه بينما استعمل الاول الفاظا تقريرية هادئة استعمل هذا الفاظا امرة ناهية فيها حرارة للتوجيه وصدق الشعور بالموضوع . انظر مثلا هذه الكلمات ذات الرنين الخاص – بني وطني – اعيدوا – وادوا – وذودوا – وفكوا – لا تتركوه ... التي توحي لاول وهلة ان الشاعر يلقي بها في مظاهرات شعبية صاخبة .

اما النموذج الذي ناتي به لمحمد العيد فهو يدلنا على وضوح الهدف الذي سعى اليه الشعب منذ ان انطلق اوائل القرن العشرين ، ويدلنا كذلك على ان الشعر قد يبلغ من الحماس احيانا ما يجعله يلقى بهدوء الاصلاح جانبا او يكاد ..

يقول محمد العيد من قصيدة نشرها في جريدة « المنار » سنة ١٩٥٠ مطلعها :

حشوا العزائم واصدقوا الامالا ان الزمان يسجل الاعمالا

ويقول فيها :

يا قوم هبوا لاغتنام حياتكم فالعمر ساعات تمر عجالا
الاسر طال بكم فطال عناؤكم فكوا القيود وحطموا الاغلالا
والشعب ضج من المظالم فانشدوا حرية تحميه واستقلالا

ويقول وهو يقصد العلم الجزائري

لا امن الا في ظلال مرفرف حر لنا عال ينير هلالا
من فوق جند بالعتيد من القوى يلقى العدو ويصمد استبسالا

ثم يقول –

واذا اراد الشعب نال مراده ولو انه كالنجم عز منالا

ولعل محمد العيد اول من صرح بالاستقلال والعلم والحرية والجيش وارادة الشعب من اخوانه الشعراء وجاء بها في هذه الالفاظ التي لا تحتمل غير مدلولاتها الحقيقية ... ذلك ان الشعراء الجزائريين وهو منهم كانوا يختبئون وراء الكلمات ولا يصرحون بما يريدون ولذلك كثرت في الشعر الجزائري الالفاظ المحتملة والمبهمة .. فقد اطلقوا على الاستعمار لفظ (الاسر) وعلى الوطن لفظ الحمى) وعلى الحرية صفة (الحمراء) وعلى الاستقلال لفظ (المجد)

وهذه ناحية سنعقد لها فصلا خاصا لانها من الاهمية بمكان عند من يتعرض لدراسة الشعر الجزائري دراسة تاريخية متطورة على ضوء الاحداث والظروف ..

وهذا نموذج آخر انشده محمد العيد قبل الثورة بنحو ثلاثة شهور فقط انشده في جماهير غفيرة يوم الاحتفال بافتتاح مدرسة (باتنة) ولولا اني كنت حاضرا لهذا الشعر وهو يلقى ورايت بعيني الاثر الذي تركه في الحاضرين ما التفت اليه اطلاقا ..

يقول الشاعر الكبير –

وما التسجيل للاثار الا ببذل المال او بذل الضحايا
حذار من الشقاق فان اقمتم عليه عصاكم انفلقت شظايا
ولي وطن حبيب لي خصيب وقفت على محاسنه هوايا
وكنت له من الاحرار عبدا له روحي وما ملكت يدايا
اذا آنست من بلواه نارا فاني قد وجدت بها هدايا

ولا تنس ايها القارىء ان كل بيت من هذه الابيات كان الجمهور (واكثره لا يعرف القراءة والكتابة) يستعيده ويصفق له ويكبر من اجله فكانه انذارات بالثورة وسهام نحو الاستقلال .

شعر الثورة

كان بعض الشعراء موجودين قبل الثورة وكان لهم قصائد في اغراض شتى واهمها وطنية فلما اشتعلت الثورة اذكت العواطف وهزت المشاعر وانطقت الاقلام التي كانت من قبل مكبوتة محرومة من نعمة التعبير وفتحت امام الذهن آفاقا ما كان يستطيع ان يرودها لولا الدم والنار والحديد .

وقد تفجرت هذه وتلك بشعر ثوري عارم يسجل انتصارات الثورة ويبشر بالاستقلال والغد الحر ويتغنى بالحرية والوطن ويشارك المحزونين والمتالمين ويضمد الجراح ويكفكف الدموع ويخلد الشهداء والابطال والوقائع هذه الطائفة من الشعراء هي اليوم وليدة الثورة شاعرية وان لم تكن وليدتها زمنيا ، فقد كان بعض هذه الطائفة موجودا قبل الثورة كما قلنا . اما شعرها فيتميز بانه لا يخرج تقريبا عن الروح الوطنية المشتعلة سواء طرق مواضيع ثورية مباشرة او استوحاها من الواقع العربي عموما ...

والذي يلاحظ على شعر الثورة هو انه غير مركز جملة – شان انتاج الثورات – يؤديه الحماس الطائر والعاطفة المجنحة بدل الخيال الموحى والتامل البارع كما يلاحظ عليه نقصان التجارب لان اغلب شعرائه من الشباب المتحمسين ...

ومن شعراء هذه الفترة احمد الباتني ومحمد صالح الخرفي وابو القاسم خمار وعبد السلام حبيب ومحمد صالح باويه وعبد الرحمن زناقي، ولعل كاتب هذه السطور لا يرى باسا من اضافة اسمه الى هذه الاسماء.

ونعتقد ان شيوخ الشعر لديهم انتاج كبير يمثل هذه الفترة الجيدة من كفاح الجزائر ولكن عذرنا في عدم التعرض لانتاجهم هنا هو اننا نؤرخ للشعر الحديث متتبعين مراحله واطواره ولسنا دارسين او ناقدين في الوقت الحاضر ...

وهذه بعض النماذج من هذا الشعر الثوري ...

يقول الشاعر عبد السلام حبيب من قصيدة بعنوان (مصرع خائن) :

خذها ودمدم من مسدسه رصاص – خذها فقد حان القصاص – الويل لك – يا خائن الشعب الجريح – لن استريح – حتى تموت سافتلك – باسم الوطن – باسم الجراح الراعفة – باسم الجموع الزاحفة – باسم الجزائر والنضال – خذها رصاصة ثائر – حر الضمير جزائري ..

وفي هذه القصيدة تحدث الشاعر عن البطل محمد بن صادق الذي اغتال الخائن على شكال على مراى ومسمع الالاف في باريس وتحدث عن الروح الفدائية وعن الذعر الذي انتاب الفرنسيين اثر الواقعة ..

اما محمد صالح باويه فانه يقول في قصيدة له بعنوان (الثائر) –

يا رفاقي في الذرى في السجن في القبر وفي آلام جوعي
قهقه القيد برجلي يا رفاقي حدقوا فالثار يجتر ضلوعي
يا جنون الثورة الحمراء يجتاح كياني ومغارات ربوعي
اقسمت امي بقيدي بجروحي سوف لا تمسح من عيني دموعي
اقسمت ان تمسح الرشاش والمدفع والجرح بمنديل دموعي
اقسمت ان تغسل الجرح وتغدو شعلة تضرم احقاد الجموع

ويتحدث الشاعر ابو القاسم خمار عن الشعب الجزائري ضمن ملحمة طويلة استعرض فيها كفاح المغرب العربي كله والقصيدة بعنوان (ظلال واصداء) :

تاركا لزوبع الغضوب كأشباح الدياجير يعصر الخصم عصرا
ثار في ثورة اذا قيس بركان بهزات نارها كان يسرا
ثورة تحمل الابادة للبؤس ، وللعدل والسعادة بشرى

وقصيدة (سلاحنا وسلاحهم) يتحدث فيها الشاعر صالح الخرفي عن فرنسا فيقول

ملأت الارض والاجوا حديدا فكان العزم اقوى من حديد
فلسنا في الوغى جددا فتثنى عزائمنا اساطيل الجنود
ولاعشاق دينار فتلوى اعنتنا بوارق من وعود
ولكن عيشة الاحرار نبغى ودون بلوغها نيل الخلود
زحفنا كالاتى فكنت سدا سلى خبر الاتى مع السدود

وفي احدى قصائد الشاعر عبد الرحمن زناقي يقول عن الثورة ـ

في كل يوم ثورة للنار في ارضنا كالرعد كالاعصار
في كل يوم ثورة وقادة ترمي الطغاة باسهم من نار

ويقول احد شعراء الثورة من قصيدة له بعنوان (جرح ملوزة) يخاطب ارض الوطن ـ

يا ارضي المنطلقة ـ يا نسرا يحضن حرية ـ شعلة نور منبثقة ـ ما زالت في الكأس بقية ـ شربوها موتا او خيبة ـ وسنملأها حرية ـ يا ارضي المنطلقة ـ لا الما لا شكوى ـ امضي في الافق الارحب ـ افق الثورة ـ آسي الجرحة بالجرحة ـ وأطيري الموكب بالفرحة ـ لا ألما لا شكوى ـ يا ارضي المنطلقة .

موضوعاته وخصائصه

ربما يشك البعض في أن التاريخ القصير الذي قدمناه عن الشعر الجزائري يصوره قاصرا على النواحي الاصلاحية الوطنية فحسب . والحقيقة ان تلك هي الصفة الغالبة على هذا الشعر اما ما عداها فيوجد فيه الرثاء والمدح والوصف والتهاني والعتاب والحكم .

وهناك صفة اخرى تغلب عليه وهي انه شعر مناسبات بعيد كل البعد عن الذات ووجيها الا في القليل النادر . وهو خال تماما ـ المنشور منه ـ من الغزل ـ وقد ذكر احد رواده (اللقاني) سبب ذلك فقال :

الا فدع التغزل في غوان فتلك طريقة المستهترينا
فمن صوت البلاد لنا نداء يكاد المرء يسمعه انينا

ومن خصائص الشعر الغالبة انه يفخم المطالع ويصرعها ويختار لها من اللفظ ابعده وأوقعه :

(بباتنه) رعد البشائر لعلعا فاطرب (اوراسا) بها و (الشلعلعا)
يا (وادي السان) اوردنا باحسان ولا تمتنا صدى يا وادي السان
عظم المصاب وجلت الدهماء وتوالت البأساء والضراء

ويختمها غالبا ببيت دعاء فيه ترحم او ضراعة أو رجاء أو امر أو نهي بعد ان يمهد لذلك في الابيات السابقة :

فالحظ الله سيرنا بوفاء وأنر نهجنا وبارك خطانا
لئن سجنوا الشعب الكريم بشخصكم فقد اطلقوه اليوم فليبشر القطر

ومن ذلك انه يطيل القصيدة غالبا بحيث يتناول فيها اغراضا متعددة ولذلك يلجأ الى عنونتها ببيت كامل أو بشطر دون ان يحصر الموضوع في نقطة معينة ويضع لها عنوانا قصيرا مستوحى من الموضوع والنماذج على هذا كثيرة .

ومن ذلك أنه شعر جزائري قليل التعرض للقضايا العامة ولذلك قلنا انه قد صور حياة الجزائر تصويرا واقعيا صادقا بحيث تحدث عن جهلها وبؤسها وتأخرها وتحدث عن جمالها ومنزلتها وامتيازاتها وتحدث عن نهضتها وحركاتها ورجالها ..

فاذا ما تناول قضية عامة فان ذلك بوحي من داخل الجزائر مثل استقلال بعض الشعوب والحرب والنفس والموت وعلاقة الانسان بالله.. الخ .

ومن ذلك انه كثيرا ما التجأ الى التلغيز والابهام ووضع كلمة مكان اخرى تقية وخوفا او حبا في التشويق والاغراء وقد سبق ان مثلنا لبعض ذلك وننبه الى ان في شعر محمد العيد كثيرا من الالغاز والرموز التي يقصدها قصدا .

ولعل اكثر ما يميز الشعر الجزائري جزالة اللفظ وحبك العبارة والمحافظة على القوالب العتيقة وانعدام الروح الفنية التجديدية بما في ذلك من التخيل وعدم الوحدة الموضوعية والعضوية ، الكلف بالحكمة والتقرير والتعميم في الاحكام والاحتواء على العبارات الدينية والقصصية على اساس التضمين والاقتباس ، طول النفس والبساطة والتمهيد بالمقدمات الطويلة للوصول الى الغرض الرئيسي ..

وزيادة على ما قدمنا عن موضوعات هذا الشعر فاننا نضيف اليها انه تناول الاصلاح الديني والاجتماعي والعلم والتعلم والمدرسة ، قضية الاندماج والعروبة والاصلاح والامجاد والماضي العربي ، الخاطرات الخاصة والتأملات الذاتية وهي قليلة ـ الاخوانيات كالتهاني والتعازي والتقاريظ.

وقد جمد الشعراء في الفترات السابقة للثورة على الطريقة التقليدية ولم يحاولوا التخفيف من طابع القديم فاذا ما حاول بعضهم كالطاهر البوشوشي وجلول البدوي والاخضر السائحي فان ذلك لا يعدو تصفية الكلمات وترقيق العبارة اما ما يخص الاغراض البلاغية (كالطباق والجناس والاقتباس والتضمين) وما يتعلق بالقافية والوزن الغاء وتصرفا فهذا ما لم يفعل الشعراء ازاءه شيئا .

اقرأ مثلا هذا البيت لمحمد العيد :

النيابات كلها نائبات والقيادات كلها أقياد

وهذا البيت من القصيدة ذاتها :

ان للعرب في الحضارة قدما قدما للورى عليها اعتماد

وهذا البيت الاخر :

نتواصى بالحق والصبر فيه والتواصي تضامن وجهاد

وهذا البيت لعبد الكريم العقون :

كذا العرب جسم واحد ان يذق أذى تداعت له الاعضاء بالسهد والضر

ويقول الشاعر احمد سحنون :

وما الشعر الا ثورة غير انها تصول بلا كف وتسعى بلا رجل

ولو تتبعنا هذه الناحية لخرجنا عن موضوعنا الاساسي وهو العرض والتأريخ .

التجديد

كنت أتابع الشعر الجزائري منذ سنة ١٩٤٧ باحثا فيه عن نفحة جديدة وتشكيلات تواكب الذوق الحديث ولكني لم أجد سوى صنم يركع

امامه جميع الشعراء بنفم واحد وصلاة واحدة ، ومع ذلك فقد بدات اول مرة انظم بالطريقة التقليدية اي كنت اعبد ذات الصنم واصلي في نفس المحراب ، ولكني كنت شغوفا بالموسيقى الداخلية في القصيدة واستخدام الصورة في البناء .

وقد نشرت اول شعر جزائري في الهجر والياس بعد صدمة قلبية . منه هذه الابيات (البصائر ١٩٥٢) :

رفت به الاقدار في افاقها حينا ... واصمت طيرها بسهام
سقط المهيض وحطمت اوتاره متألما ظامى العواطف دامى
اسقيه من دمع الصبابة داهقا من وحشتي وكآبتي وظلامي

ولست آتي بهذه الابيات لجودتها ولكن لوجودها في فترة انعدم مثلها واستحال .

اما عن الغزل فقد نشرت قصيدة بعنوان (الجمال الخالم)-الاسبوع ٣١٨ - ٥٣ -جاء فيها :

اضفي الوجود مداك في الالوان وجلاك معرض للخلود الهاني
تجثو الحقائق من سموك ركعا وتفيض منك جداول الايمان
ملك تندى النور في بسماته وسرى كسحر الفن في الفنان

والحق اني لست راضيا عن كثير مما في هذا الشعر ولكني جئت به ليمكن القارىء من دراسة التطورات والمراحل التاريخية والانفعالات المباشرة وغير المباشرة في الشعر الجزائري . ولعل القارىء يلاحظ في غير عناء الروح التي تفرق بين ما سبق ان عرفه من نماذج وبين هذين النموذجين بالرغم من ان كل ذلك متساو تقريبا في الشكل ولكن الاختلاف في المضمون والروح والعاطفة والاداء .

وعندما اتصلت بالانتاج العربي القادم من الشرق - سيما انتاج لبنان- بدات اقرأ النقد الحديث والمذاهب الادبية والمدارس الفكرية واطلعت على نظريات الغربيين في النقد المعاصر حملني كل ذلك على مسايرة القافلة والتجاوب مع النهضة المتحررة من قيود الماضي ..

وقد نشرت اول الامر بعض القصائد رتيبة التفاصيل حرة القافية .. مثل (احتراق - اطياف - خميلة وربيع) ثم لم البث ان تحررت من عدد التفاعيل ايضا ونشرت اول قصيدة حرة في الشعر الجزائري سنة ١٩٥٥ (البصائر - ١١١) بعنوان (طريقي) وهذا مقطع منها :

سوف تدري راهبات دير عبقر - كيف عانقت شعاع المجد احمر - وسكبت الخمر بين العالمين - خمر حب وانطلاق ويقين - ومسحت اعين الفجر الوضيء - وشدوت لنسور الوطنيه - ان هذا هو ديني - فاتبعوني او دعوني - في مروقي - فقد اخترت طريقي - يا رفيقي .

ثقافته

هناك نوعان من الثقافة في الشعر الجزائري - ثقافة داخلية محلية واخرى خارجية ونقصد بالثقافة الداخلية جميع المصبات الروحية والمادية التي اخذ عنها الشعر وتلون بها . فهناك مثلا ثقافة المدرسة والاسرة والمجتمع والمسجد وثقافة الطبيعة والافكار الحزبية ومبادىء الاصلاح النابعة من صميم الواقع الشعبي .

اما الثقافة الخارجية فهي تلك النظريات والمذاهب الادبية وغير الادبية التي دخلت الجزائر عن طريق الكتاب والرحلات والاذاعة والصحافة سواء كانت هذه الثقافة عربية او غير عربية ..

واذا اردنا ان نعطي صورة قريبة غالبة عن الثقافة في الشعر الجزائري قلنا انه كان قليل التاثر بالمذاهب الادبية الصرفة ، ميالا الى الاعتدال والحذر في اعتناق كل شيء غير ديني وغير اصلاحي ولذلك لم تنجح الرومانتيكية وغيرها في الجزائر بالرغم من وجودها في الشعر الفرنسي وفي شعر الشابي في تونس . .

وليس معنى هذا انها لم تدخل الجزائر قط ، لقد دخلت ولكنها كانت قليلة الحظ بين الشعراء والادباء على السواء فقد اراد الانتفاع بها كل من الطاهر بوشوشي وجاول البدوي ولكنهما لم يستطيعا لان الاوضاع الاجتماعية لم تسعفهما او تعترف لهما بالسلطان ..

ويبدو ان محمد العيد قد تاثر بافكار جبران وفلسفته الى حد كبير سيما في قصائده التالية (هيجت وجدي - يا ليل - يا قلب - وليت نحوك وجهي) ..

ونحن نجد ان المدرسة الخارجية التي تاثر بها الشعر الجزائري هي المدرسة التي كان من روادها شوقي وحافظ والرصافي . وهي مدرسة زعماء الشعر الاصلاحي - ان جاز التعبير - او كما يقول العقاد المدرسة الوسطى . فقد كانت هذه المدرسة تسير مع النهضة العربية الصاعدة وتعبر عن آلام ويقظة الشعوب العربية وتتخذ من الواقع العربي الاسلامي موضوعات خصبة تبثها افكارها ومشاعرها ولذلك نستطيع ان نقول ان نفس المدرسة الشرقية قد انتقلت الى الجزائر مع فارق واحد بسيط هو ان شعراء الجزائر قد البسوها ثوبا محليا وصبغوها بالوان بلادهم.

ويمثل هذه المدرسة في الجزائر الشعراء محمد العيد ، سحنون ، زكريا ، اللقاني ، الغزالي ، العمودي ، الزاهري ، السنوسي ..

ولا نحب هنا ان نلتمس المبررات لاعتناق الشعراء هذه المدرسة فهي اوضح من ان نبحث فيها ونجري وراءها غير اننا نقول باختصار ان الفترة التي عاشتها الجزائر منذ اوائل القرن العشرين حتى الحرب العالمية الثانية كانت تقريبا هي نفسها الفترة التي عاشها الشعب العربي ابان انبثاق هذه المدرسة ولذلك نجحت في الجزائر كما نجحت في الشرق لان الاوضاع واحدة والاهداف متحدة .

ولعل القارىء قد لاحظ مما سبق مقدار النفوذ الذي تركته تلك المدرسة في الشعر الجزائري وسنكتفي هنا بنموذج واحد للشاعر اللقاني ونرجو من القارىء مقارنته بقصيدة حافظ الشهيرة على لسان اللغة العربية ..

يقول الشاعر الجزائري اللقاني عن اللغة العربية :

يا امة ضيعت مجدا لها سلفا طال النداء بنا لو كان يجدينا
ها هي ام اللغى تنعى لمصرعها ها هي الفاظها تبكي وتبكينا
خلطتموها بالفاظ مشوهة ولم تقيموا لها يوما موازينا
صارت شبيهة اثواب مرقعة تضم من خرق طمر ملايينا

ومما تجب ملاحظته في هذا الصدد انه بينما تخلفت المدرسة الوسطى في الشرق نجد انها ما زالت شابة مسيطرة في المغرب عامة وفي الجزائر خاصة وما يزال لها انصارها الذين يرفضون كل تعديل او تطوير في القوالب او الاساليب الشعرية وهم لا يكتفون بذلك بل يقفون في وجه كل من يحاول الخلاص من تلك القيود ولولا الرغبة في عدم الاستطراد لحدثتك عن العمل الذي قام به اولئك الانصار حين نشرت اول قصيدة متمردة ..

وعندنا ان الثقافة الداخلية المحلية تتمثل في اشعار جلول البدوي

وأبو اليقظان والعقوق والسائحي والعقبي والعيد ايضا . فمن هؤلاء من يتخذ الطبيعة الجزائرية مادة للاستيحاء ومنهم من يستلهم الواقع العفن الذي يعيشه الشعب . ولكن ليس بينهم من تخصص في ناحية معينة.

وأحسب ان القاريء ينتظر مني ان احدثه عن الثقافة اللغوية والاجنبية في الشعر الجزائري ، على أني اسارع فأقول انني ما دمت قد ربطت بين هذا الشعر وبين المدرسة الشرقية الوسطى فقد اصبح من الواضح ان هذا الارتباط سيكون لغويا قالبيا وموضوعيا بل ربما يكون أعرق في القدم من حيث العبارة واللفظة فان رجلا كشكيب ارسلان المتحمس للقديم يقول في شعر محمد العيد : « اما قصائد محمد العيد فاني اقرأها المرات العديدة ولا امّلها وكلما ذكرتها اجدد دائما عذوبتها في فمي فهو يمثل لنا زهير في القرن العشرين »

أما الثقافة الاجنبية فيلاحظ عنها أنها قليلة الحظ في الشعر الجزائري وذلك يعود الى ان اكثر الشعراء لا يتقنون غير العربية فاذا كان لديهم رصيد من الثقافة الفرنسية او بالاحرى اللغة افرنسية فان هذا الرصيد لا يعدو أن يكون مصلحيا اي رصيدا للشارع والتجارة والاسفار وليس ثقافيا للفكر والعاطفة والخيال .

الشعر بالفرنسية

بحثنا في هذا الموضوع طويلا وسألنا عنه كل من له صلة بالنشاط الثقافي سواء في الجزائر او في فرنسا .. وقد عرفنا أن الانتاج الشعري بالفرنسية قليل بالنسبة للشعر بالعربية وانه حديث السن بحيث لم يكتب فيه غير المتأخرين وانه يعنى بالناحية الاجتماعية والمعيشية للشعب .

وعندنا ان السبب في هذه القلة هو ان المثقفين او المنتجين اتجهوا لاشباع نهمهم الادبي وساروا مع الادب الفرنسي الذي يلاحظ النقاد عنه انه ترك للقصة السيطرة الكاملة على أكثر انتاجه ولذلك كان للجزائر قصاصون بالفرنسية امثال : محمد ديب ، مولود فرعون ، ومعمري ، وكاتب ياسين وغيرهم .ولكن الشعراء بالفرنسية لا يكادون يذكرون . وهناك اسباب اخرى منها ان مجال النشر غير فسيح للشعر بالفرنسية كما هو فسيح للشعر بالعربية سيما اذا كان يتناول اغراضا وطنية ..

والنهضة التي حدثت في الجزائر كانت عربية المبادىء والاهداف وكان لها صحافتها وشعاراتها . والصحف بالفرنسية اما ان تكون حزبية او استعمارية وقد يكون الشاعر غير حزبي فيضطر الى السكوت لانه يعرف ان امله في النشر ضعيف ..

ومنها أن الطبقة المتذوقة للشعر في المجتمع الجزائري قليلة وذلك لان هذه الطبقة اما ان تكون ذات لسان عربي وهي تمثل الاغلبية المطلقة ، واما ان تكون ذات لسان فرنسي وهذه لها مشاكلها ومواردها الثقافية الخاصة وليس لاكثرها استعداد للتجاوب مع الروح الوطنية التي كان على الشعر أن يتغنى بها .

وبينما وجد الشعر بالعربية سوقا رائجة وجماهير متحمسة لم يجد الشعر بالفرنسية شيئا من ذلك فانزوى على نفسه ..

ولولا بعض النصوص والاشارات التي تدل على وجود شعر بالفرنسية لما طرحنا هذا الموضوع للبحث اطلاقا .. وهذه هي : ١ ـ كنت ارى باستمرار قطعا شعرية منشورة في جريدة ـ الشاب المسلم ـ التي كانت تصدر بالفرنسية في الجزائر .

٢ ـ سألت بعض الرفاق في مكتب الجبهة بالقاهرة فدلوني على وجود شعراء تناولوا الناحية الدرامية مثل الشاعر آية جعفر .

٣ـ سمعت بوجود كتاب مطبوع يحوي نماذج من الشعر الجزائري بالفرنسية .

٤ ـ قرأت في مجلة (الكاتب المصري) ـ ديسمبر ١٩٤٧ ـ انها اتصلت بمجلة (فورج) التي تصدر بالجزائر ثم قالت عنها انها كراسات ادبية تصدر باللغة الفرنسية وفيها طائفة من الشعر لكتاب فرنسيين وعرب يقرضون الشعر بالفرنسية .

٥ـ قرأت في (المجلة)المصرية ـ اغسطس ١٩٥٧ ـ مقالا عن الادب الجزائري كتبه الاستاذ انور عبد الملك ذكر فيه ان (ديب) يقرض الشعر واتى له بنموذج .

وليست لدينا النماذج الكافية للحكم على اتجاهات هذا الشعر وموضوعاته وأساليبه .

وهذه قصيدة محمد ديب من مقال الاستاذ عبد الملك وعنوانها (ساعة الجنون) يقول فيها :

ايتها الريح ، ريح الليل القاسية ـ عودي الى البلاد ـ التي جئت منها وقولي لها عليك السلام ـ هذا هو الربيع ـ بين ملتقى الجبال ـ انه يعد ساعات واضحة ـ فيها العسل وفيها الذرة ـ وفيها القمح للبشر اجمعين .

القاهرة **ابو القاسم سعدالله**

مراجع البحث

(١) شعراء الجازئر في العصر الحاضر — الهادي السنوسي
(٢) ديوان الشاعر اليقظان — ج . ١ . ط . ١
(٣) ديوان الشاعر محمد العيد — مخطوط في جزئين
(٤) هذه هي الجزائر — احمد توفيق المدني
(٥)النصر للجزائر (ديوان شعر) — ابو القاسم سعدالله
(٦) مجلدات مجلة الشهاب — من سنة ٣١ ـ ٣٦
(٧) مجموعات جريدة البصائر
(٨) مجلة الكاتب المصري — ديسمبر ١٩٤٧
(٩) مجلة المجلة — اغسطس١٩٥٧
(١٠) شروط النهضة — مالك بن نبي
(١١) كتب خاصة بعث بها بعض الشعراء

مجموعات « الاداب »

لدى الادارة عدد محدود من مجموعات السنوات الاربع الاولى من الآداب تباع كما يلي :

	غير مجلدة	مجلدة
مجموعة السنة الاولى	٤٥ ل.ل	٥٠ ل.ل
« « الثانية	٢٥ «	٣٠ «
« « الثالثة	٢٥ «	٣٠ «
« « الرابعة	٢٥ «	٣٠ «